للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم أحمد حسن الزيات

كان الأب مارنيان يحمل اسمه الحربي [1] عن جدارة . والأب مارنيان قسيس كبير [2] متعصب ضاوى الجسم ثائر النفس ، إلا أنه مستقيم خيّر . ثابت العقيدة لا يتذبذب ، صادق الايمان لا يشك ، وهو يعتقد مخلصاً أنه يعرف الله ويستبطن أسرار حكمته وأغراض مشيئته . كان إذا سار أحياناً بخطاه الواسعة فى ممشى مسكنه الربى للصغير ونظر فى الشيء بعد الشيء ، قام فى ذهنه هذا السؤال : « لماذا خلق الله هذا ؟ » ثم يبحث عن الجواب ويلح فى البحث ، متخذاً بفكره لنفسه مكان الله حتى يجد ، وغالباً ما كان يجد . فليس هو الذى يغمغم فى سورة من التقى الخاشع بهذه الجملة : « مولاى ! لقد جلت مقاصدك عن عقول الناس ! » وإنما يقول : « أنا خادم الله فيجب أن أعرف علل تدبيره وحِكَم تصرفه ، إن لم يكن على وجه اليقين ، فعلى وجه الحدس والتخمين » . ففى رأيه أن كل شيء فى الطبيعة إنما خُلق على مقتضى نظام عجيب ومنطق مسلّم ، و(لماذا) و(لأن) يتعادلان دائماً فى ميزان عقله . فالفجر يبزغ ليستيقظ الناس فى مسرته وبهجته ؛ والنهار يضحى ليينع الثمر وينضج الحصيد ؛ والمطر يهمى لتحيا الأرض وتروى الزروع ؛ والمساء يقبل ليأوى الناس إلى المضاجع ؛ والليل يحلولك ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الكرى ؛ والفصول الأربعة إنما تنطبق كل الانطباق على حاجات الزراعة . وهيهات أن تداخل القسيس شبهة فى أن الطبيعة لا غرض لها ، وأن كل حى فيها إنما يخضع لضرورات الوقت والاقليم والمادة . ولكنه كان يكره المرأة ؛ يكرهها من وراء وعيه ، ويحتقرها بمحض غريزته . وكان كثيراً ما يردد قول المسيح : « أيتها المرأة ،

(١) كانوا فى الزمن الغابر يلقبون الجندى حين دخوله فى الخدمة بلقب . ومارنيان لقب هذا القس اسم مدينة إيطالية تقع فى الجنوب الشرقى من ميلانو . وقد انتصر فيها الفرنسيون على السويسرة سنة ١٥١٥ وعلى النمسا سنة ١٨٥٩ .

(٢) كبير (grand) لقب كان يعطى للأولين الممتازين فى طبقتهم من العلمين والكهنة والسادة الخ .

هل بينك وبيني شركة ؟ » ثم يعقب على هذا بقوله : « كأن الخالق نفسه ساخط على هذا المخلوق ! »

هي في رأيه الطفلة التي غشيها الدنس اثنتي عشرة مرة كما زعم الشاعر ؛ وهي التي أغوت الانسان الأول ولا تزال تواصل عملها المهلك في بنيه ؛ وهي الكائن الضعيف المخطر الذي يكدر صفو العالم في علن وخفية . ولقد كان يبغض روحها الجذاب أكثر مما يبغض جسدها المهلك ؛ وكان كثيراً ما يتسلم عليه حنان المرأة فيتغيظ من عاطفة الحب التي تعتلج دائماً في نفسها ، وإن كان هو في حصن منيع من تأثيرها . وهو يرى أن الله لم يخلق المرأة إلا فتنة للمرء ومحنة . فهو جدير بأن يتقيها كما يتقي الشرك ، فلا يدنو منها إلا على حذر . ولعلها أشبه ما تكون بالفخ حين تبسط ذراعيها وتفتح شفتيها للرجل . كان لا يتسع صدره إلا للراهبات ، لأنهن نذرن أنفسهن لله فاعتصمن برعايته . ومع ذلك كان يقسو عليهن لأنه لا ينفك يحس في صميم قلوبهن المغلولة الضارعة ذلك الحنانَ الأبدي الذي يدرك — وهو قسيس — أثره في نفسه . كان يحس ذلك الحنان في نظراتهن وهي أشد من نظرات الرجال اخضلالا بالدمع وابتهالا بالورع ، ويحسه في تجلياتهن الروحي وقد اختلطت به عواطف جنسهن ، ويجسده في نزعات حبهن إلى المسيح ؛ وذلك الحب يوغر صدره بالحنق لأنه يرى فيه حب المرأة وهوى الجسد . يحس ذلك الحنو الملعون في وداعتهن نفسها ، وفي رخامة أصواتهن لدى الحديث ، وفي أطرافهن الغضيضة عند النظر ، وفي دموعهن المستكينة حين يؤنبهن بقسوة على خطأ

كان إذا ما خرج من ديرهن نفض مسوحه واندفع مهرول كأنما يفر من خطر . وكان له بنت أخ تعايش أمها في منزل صغير مجاور ، فكان يحرص كل الحرص على أن يجعل منها راهبة ، ولكنها كانت على ظرفها رعناء ساخرة . كانت تضحك منه إذا وعظ ؛ فإذا غضب عليها قبلته بقوة ، ثم ضمته إلى صدرها بشدة ، فيحاول هو مضطراً أن يتملص من هذا العناق الذي يبعث فيه مع ذلك نشوة السرور المعذب بأيقاظه شعور الأبوة الراقد في قرارة كل نفس

كان يحدثها عن الله ويسايرها جنباً إلى جنب في مسالك الحقول فتجعل حديثه دَبْرَ أذنيها ، ثم ترسل نظرها في السماء والعشب والزهر وقد تراءت في عينيها سعادة الحياة وزهرة العيش ؛ فإذا رأت فراشة تطير عدَت وراءها فقنصتها ثم صاحت : « انظر يا عماه ما أجملها ! إن نفسي تنازعني إلى تقبيلها ! »

هذه الحاجة إلى (التقبيل) البادية في لثمها هوام الطير وحبِّ الشجر ، أزعجت القسيس وهاجت بلابل صدره ، لأنه رأى هنا كما رأى هناك هذا الحنو المتأصل الثابت الذي ينبت دائماً في قلب المرأة . وفي ذات يوم أقبلت امرأة سادن الكنيسة ، وهي مديرة منزل القسيس ، تخبر الأب مارنيان في حيطة شديدة أن ابنة أخيه عاشقة ! كان القس يحلق لحيته ففجئه روع الخبر فبهت ووجم ، وترك الصابون على وجهه وأقام ساعة لا يتحرك ولا يطرف . فلما ذهب عنه الدهش وثاب إليه الرشد صاح في وجه المرأة قائلاً : « هذا غير صحيح ! إنك تكذبين يا ميلاني ! »

ولكن المرأة القروية وضعت يدها على قلبها وقالت : « لعنني الله يا مولاي القس إذا قلت في ابنة أخيك الكذب . أقول لك إن لها عاشقاً تخرج إليه كل مساء بعد أن تنام عين أختك ؛ وإنهما

ليلتقيان على ضفة النهر ؛ وتستطيع أن تراهما بعينيك إذا ما ذهبت هناك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

أمسك الرجل عن حلق ذقنه ، وأخذ يمشى ويُصنف فى مشيه كدأبه فى ساعات التأمل الخطير . ولما استأنف حلق لحيته جرح نفسه ثلاث مرات فيما بين أنفه وأذنه ؛ وظل طول يومه صامتاً متلدداً وقد انتفخت أوداجه من الغيظ ، وانتُسف لونه من الغضب . اجتمع فيه فزع القسيس أمام الحب القاهر ، إلى حنق الوالد ذى الخلق ، والوصى ذى الضمير تمكر به طفلة فتخدعه وتسرقه . أضف إلى هذين وجوم الأنانية الذى يعترى الأهل حينما تعلنهم الفتاة أنها اختارت زوجها دون رأيهم وعلى رغمهم

فرغ من عشائه ثم حاول أن يتلهى قليلاً بالقراءة فلم يستطع ، وأحس بالغيظ تزداد فورته فى صدره . فلما دقت الساعة عشراً تناول عصاه ، وهى هراوة ثقيلة من شجر البلوط يستخدمها دائماً فى جولاته الليلية كلما خرج إلى عيادة مريض . نظر وهو يبتسم إلى العصا الضخمة ، ثم أدارها فى كفه القوية القروية دورات رحوية مهددة ؛ ثم رفعها فجأة ، وهو يحرق الأرض ، وأهوى بها على كرسى فحطمت مسنده . ثم فتح الباب وأراد الخروج ، ولكنه وقف على عتبته مشدوهاً من ائتلاق ضوء القمر ، وهو ضوء لم يشهد مثله قبله أحد . وكان الله قد وهب الأب مارنيان فكراً وثاباً لا يهبه إلا لآباء الكنيسة ولأمراء القريض ، فوقف ذاهلاً متأثراً بجلال الليل الساجى وجمال القمر الشاحب !

كان كل شىء فى حديقته الصغيرة غريقاً فى الضوء اللطيف ، وكانت أشجارها المثمرة فى صفوفها المنظمة ترسم بالظلال على الممشى افنانها الرقيقة المخضرّة ، على حين كانت شجرة زهر العسل المتسلقة على جدار منزله تسطع بالنفحات اللذيذة الحلوة ، فتُطيف فى المساء الفاتر الزاهر نوعاً من الأرواح المعطرة

أخذ القسيس يتنفس ملء رئتيه ، ويعب النسيم كما يعب السكير الخمر ؛ ثم مشى وئيد الخطو ، مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، لا يكاد يجرى على باله ذِكر ابنة أخيه . فلما صار بين الحقول وقف يتأمل السهل كله وقد غمره سحر الليل البهى وأغرقه ضياء القمر اللاطف

وكانت الضفادع فى كل لحظة ترسل فى الفضاء أناشيدها القصيرة الأيقاع المدنية الصوت ، والبلابل البعيدة تضيف إلى ضوء القمر أغاريدها المتقطعة التى تهيج الأحلام وتحض على القبل . ثم عاد الأب يمشى وقد أحس فجأة بقلبه ينسرق وبقوته تخور دون أن يعلم لماذا ، وود لو يجلس حيث كان فيتأمل جلال الله ويتملى جمال صنعه !

وهناك على ضفة النهير قام صف عظيم من شجر الحور متعرج مع الساحل ينبعث من خلاله غماغم رقيقة من الأصوات المختلفة ، وفوق الشاطىء الوعر ومن حوله انعقد بخار أبيض قد اخترقته أشعة البدر فلمع وتفضض ، ثم غطى مجرى الماء بما يشبه القطن الرقيق الشفّ

وقف القسيس مرة أخرى وقد تخللت قلبه رقة نامية لا تقاوم ، ثم تخالجه شك مريب ، واستولى عليه قلق مبهم ، ثم نشأ فى خاطره سؤال من نوع ما كان يلقيه أحياناً على نفسه : « لماذا خلق الله هذا ؟ إذا كان الله قد جعل الليل لباساً ونعاساً فلا هو للشعور ولا للعمل ولا للذكر ، فلماذا جعله

أبهى من النهار ، وألطف من المساء ، وأعذب من الفجر ؟ » ولماذا يشف هذا الكوكب البطيء الغرّار حجب الظلمات فيكون أقرب إلى الشعر والسحر من الشمس ؟ وكأنه خُلق رصيناً كتوماً ليضيء للناس أشياء هي أدق على النهار وأخفى ؟ لماذا كان أبرع الطيور المغردة لا تسكن في الليل كما تسكن الطيور الأخرى ، وإنما تسجع بأغاريدها وسط الظلام المضطرب ؟ لماذا ضرب هذا النقاب الشفاف على وجه العالم ؟ لماذا يأخذ القلب هذا الارتجاف ، ويملك النفس هذا الانفعال ، ويسترى الجسم هذا الهمود ؟ لماذا تظهر هذه الفاتن المغرية ما دام الناس ضاجعين في أسرتهم لا يرونها ؟ لمن هذا المشهد السحري الجليل وهذا الفيض الشعري الجميل الذي ينسكب من السماء على الأرض ؟

وحاول القسيس أن يجد لهذه الأسئلة أجوبة فلم يوفق ؛ ولكنه أبصر هنالك على حواشي المرج المخضوضر ، وتحت قبة الشجر الخائض في الضباب اللامع ، شخصين يمشيان جنباً إلى جنب . كان شخص الفتى أطول من شخص الفتاة ، وكان الحبيب قد طوق بيده جيد الحبيبة ، وهو من حين إلى حين يقبلها فوق الجبين . فبعث محضر العاشقين الحياة فجأة في هذا المنظر الهامد ، فكأنه لاشتماله عليهما وتعلقه بهما إطار صاغته يد الله خاصة لهذه الصورة

كان العاشقان كأنهما كائن واحد ؛ وهذا الكائن الواحد هو الذي خلق الله له هذا الليل الساكن الساكت ، وقد أقبلا نحو القسيس كأنهما الجواب الحي أرسله الله إليه عن سؤاله

كان القسيس لا يبرح واقفاً وقد اشتد وجيب قلبه ، وزاد اضطراب شعوره ، ولم يبق لديه شك في أنه يشهد حدثاً من أحداث التوراة كغرام (روت) و (بوز) ، وأن ما يراه إنما هو قضاء لمشيئة الله أراد أن ينفذه في هذا الزخرف الفخم الذي تحدثت عنه الكتب المقدسة . ثم أخذت تدوي في رأسه آيات (نشيد الأناشيد) بما فيها من صراخ الرغبة ونداء الجسد وحرقة الغزل . فلم يتمالك أن قال لنفسه : « لعمل الله قد خلق هذه الليالي ليجعلها لغرام الناس غلالة من الجمال الأعلى : » ثم نكص على عقبيه أمام هذين العاشقين المتعانقين وكأنما لا يزالان يمشيان !

تلك كانت ابنة أخيه وذلك كان حبيبها . ولكنه الآن قد سأل نفسه : ألم يكن على وشك أن يعصي الله ؟ أليس الله قد سمح بالحب ما دام قد أحاطه بمثل هذا السنا الباهر ؟ ثم ولى مدبراً وهو ولهان خزيان كأنما دخل معبداً لا يحق له أن يدخله !

احمد حسن الزيات